خلع عبد الحميد

مقتل الامير محمد ارسلان وانتشار الفتنة

وعدنا في الجزء الماضي ان نلخص ما كتبهُ بابان زاده اسمعيل حقي بك مبعوث بغداد في جريدة طنين نقلاً عن كتاب المستر مكلاً ووفاء بذلك نقول

قال بابان زاده اسمعيل حقي لما وصلت الى ساحة ايا صوفيا كان الوقت نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً وكان الجنود قد احاطوا بالساحة واقاموا في كل الطرق الموصلة اليها وحرابهم في رؤوس بنادقهم فلم يسمحوا لي بالمرور الاَّ بعد ان اكدت لهم اني من المبعوثين . ولما دخلت المجلس لم اجد فيهِ الاَّ اربعة وعشرين من الاعضاء وقد اختاروا لهم رئيساً مصطفى افندي مبعوث حلب وكانوا مجتمعين في غرفة اللجان وكان معهم خمسة او ستة من الجنود و بنادقهم في ايديهم وهم يسطرون شكاويهم فذكروني بالانكشارية الذين اصاب بلادنا منهم مالا يوصف من الرزايا . والظاهر انهم كانوا منتدبين من قبل الجنود المتمردين لكي يرفعوا شكاويهم الى المجلس وكانوا مضطربين في وقوفهم وكلامهم . ولما خرجوا وطلب مصطفى افندي من الاعضاء ان يبدوا اراءهم وقفت وقلت انا اذا اجبنا الجنود الى ما يطلبون اوقعنا البلاد في خطر الخراب . وحينئذٍ لمس واحد يدي واسرَّ في اذني قائلاً الا ترى هنا واحداً من رجالهم . ولم اكن قد انتبهت الى ان شيخ الاسلام واحد العلماء كانا هناك

ولما انتهيت كلامي عارضني مصطفى افندي قائلاً لا محل الآن للنظر في المستقبل ولا بدَّ لنا من مداواة الحاضر بالحاضر وتخليص العاصمة من القتال والمذابح . ووقف وصفي افندي احد النواب وايَّد كلام مصطفى افندي وقال ان اجابة الجنود الى ما يطلبون هي السبيل الوحيد للنجاة

ثم أُخبرنا ان وفداً من العلماء جاء ليعرض مطالبهُ على المجلس فطلب منهم ان ينتظروا قليلا ودخل بعض الاعضاء حينئذٍ فضاقت علينا غرفة اللجان وانتقلنا الى غرفة المجلس وكان عددنا قد بلغ اربعين ولكننا لم نكن وجدنا لان بعض الجنود حضروا وطلبوا ان يشاركونا في الكلام فحاولت انا و يوسف كمال بك اقناعهم ان ذلك غير جائز قانوناً فاقتضاهم بعد اللتيا والتي حتى خرجوا من المجلس . وقيل حينئذٍ ان عددنا غير كاف للاقرار على شيء ودخل اسمعيل كمال بك وقال ان ليس في البلاد الآن قوة حاكمة غيرنا فقد اجتمعت فينا السلطة كلها فيجب علينا ان نستعملها ونأخذ المسؤولية على انفسنا

وكنا في قلق لا يوصف من الجهة الواحدة كنا نشعر ان البلاد امست على شفا جرف هار ومن الجهة الاخرى كانت اصوات الايواق في ساحة ايا صوفيا تصمّ آذاننا. وقرّ رأينا على ان نسأل الوزارة اولاً بالتلفون لنوقفنا على حقيقة الحالة وما هي الوسائل التي يجب اتخاذها فقام احمد نسيمي بك الى التلفون فعلم ان الصدر الاعظم ذهب الى المابين مع ناظر الحربية ثم تكلمنا مع محمود مختار باشا فاخبرنا عن عدد الجنود الذين يعتمد عليهم

وطلب اسمعيل كمال بك الاقتراح على عدم الثقة بالوزارة قائلاً ان ذلك هو السبيل الوحيد لنجاة البلاد. وبينما نحن نبحث في ذلك دخل وفد الجند وقال واحد منهُ لقد قتل كثيرون من رفاقنا في وزارة الحربية واذا هجموا علينا حرت الدماء انهاراً فتروا الامر والاَّ فلسنا بمسؤولين عن نتائج تأخركم

ولم يخرجوا من المجلس الاَّ بعد ما ترسّل الاعضاء اليهم طويلاً. وكان في ساحة ايا صوفيا مئات من الخوجات وثلاثة آلاف من الجنود المسلحين واقل اشارة تجعلهم يصرون على اسنانهم ويرتكبون من الفظائع ما يكون اكبر عار علينا وعلى بلادنا واعتقد انهُ كان في الامكان التغلّب عليهم بارطتين (طابورين) من الجنود المنظمين الطائعين. ولكن المجلس اقرّ على ان يطلب من نظارة الحربية ان لا ترسل الجنود الى ساحة ايا صوفيا لتمم الفتنة

وهنا ننبّهنا الى ان وفد العلماء لا يزال منتظراً فاذنّا لهم في الدخول ودخل معهم خمسة عشر جندياً بالسلاح الكامل وكان معهم احمد راسم احد اساتذة المدرسة التابعة لجامع السلطان بايزيد وقادر افندي من اعضاء محكمة التمييز. وصعد راسم افندي على المنبر وخطب فينا باسم وفد العلماء ومما قالهُ انهم لا يريدون مدرسة البنات التي عزمت الجمعية على انشائها في قندبللي لان انشاء مدارس البنات مخالف للشرع وانهُ لا اعتراض لهم على مجلس المبعوثان ولكن يجب على اعضائهِ ان يكونوا حسني التدين وان بينهم كثيرين من الاشرار الذين يجب محو آثارهم

ولما اتم راسم افندي كلامهُ قال الجنود هذه هي مطالبنا. ثم وقف رجل ابيض اللحية على مقعد وتكلم كلاماً كلهُ تهديد ووعيد لاعضاء المجلس وتحريض للجنود الى ان قال انهُ على كبر سنهِ مستعد ان يضحي حياتهُ لاجل الشريعة وختم كلامهُ بقولهِ انهُ عُزل من منصبهِ (وكان يوزباشياً) وهو ابو عائلة فعزلهُ مخالف للشريعة

وكان لكلامهِ تأثير شديد في النفوس ابكى العساكر غيظاً والمبعوثان يأساً. وابى العساكر ان يخرجوا من المجلس ولكن توفيق افندي مبعوث كنغري قال لهم ان كنتم تكفون

بنا فاخرجوا واتركونا وان كنتم لا تثقون بنا فنحن نخرج وقوموا انتم مقامنا و بكلام مثل هذا اقنعهم فخرجوا

وقال امين الفتوى انهُ لا بدَّ من اجابة الجنود الى مطالبهم والاَّ اتَّسع الخرق على الراقع وقد عرض بعضهم الاقتراع على عدم الثقة بالوزارة فقال يوسف كمال بك ان قلة اكتراث الوزارة سبب كاف لعدم الثقة بها وقال طلعت بك مبعوث القره ان عدد الحضور غير كاف للاقتراع ولا حاجة اليهِ لانهُ يلغي الآن ان حقي باشا ذهب الى المابين ليتمم استعفاءهُ . واشار لطفي بك ان تعلن الوزارة بوجوب استعفائها وقلت انا اننا اذا استطنا الوزارة بالاقتراع على عدم الثقة بها اوقعنا الفوضى في البلاد كلها اذ تمشي بغير حكومة وسبيلنا اذا اردنا الخلاص من الخطر ان نخبر الوزارة بما طلب منا وهي تدبر امرها

ولكن قرَّ القرار على ان نطلب من الوزارة ان تستعفي وعينت لجنة من شيخ الاسلام واسمعيل كمال بك وغيرهما من الاعضاء لابلاغ السلطان قرار المجلس لكن اللجنة لم تستطع المرور في الشوارع لكثرة الازدحام فلم تذهب

ونحو الساعة الثامنة حسبنا عربيًا علا صوت الابواق فاطللنا من الكوى لنتبين السبب فرأينا جمعًا كبيرًا آتيًا الى الساحة من جهة بستان السلطان احمد فظننت ان الجنود آتية لتفرق التشكيلة ولكن لم يكن الامر كذلك ثم رأينا امام الجمع رجلاً حاسر الراس فظننت اولاً انهُ احد مكاتبي الصحف الاوربية وقد اساء اليهِ الغوغاء ولا بدَّ من ان يجرَّ ذلك علينا المشاكل السياسية وكنت ارى الناس يطمونهُ ويرفسونهُ من اليمين واليسار وهو يمشي متثاقلاً و يقع احيانًا ثم يقوم ولما وصل الى مدخل الساحة لاقاهُ بعض الجنود وجعلوا يضربونهُ بكعوب بنادقهم الى ان صار على مئة خطوة من باب المجلس فجمع ما بقي فيهِ من القوة وركض نحو الباب لكن الذين كانوا وراءهُ امسكوا بيديهِ ليمنعوهُ من الهرب وحينئذٍ سمعنا طلق البنادق من الشارع الموصل الى سراي طوب قبو والحال أُطلقت الوف من البنادق وسقط ذلك المسكين الى الارض ولم أكن قد عرفت من هو

ولما سمع المبعوثان طلقات البنادق هربوا الى الطبقة العليا من المجلس وفتح لي خادم احمد رضا بك بابًا يوصل الى نظارة المدنية وسمعت حينئذٍ ان الرجل الذي قتل هو جاهد بك ففاضت الدموع من عينيَّ عليهِ واذا بقائل يقول اياك ان تظهر الحزن عليهِ فتتبع بهِ

ووقفت في شباك ارى منهُ القتيل وانا اظنهُ جاهد بك واذا بقائل يقول بل هو ارسلان بك ظنوهُ جاهد بك فقتلوهُ وكان كما قال فان الامير محمد ارسلان كان آتيًا الى المجلس على

رغم نصائح جواد بك وجاهد بك فلاقى منيته لعنة الله على قاتليه

ثم اورد المخبر مكالمة قصة الاميرالاي فائق بك وخلاصتها انهُ وصل الاستانة يوم الفتنة فذهب الى مطبعة شوراي امَّة احدى جرائد الجمعية فوجدها مقفلة فذهب الى الباب العالي فوجد الذين هناك غير شاعرين بوجود الفتنة ورأى حلمي باشا فوجد انهُ غير موجس شرًّا مما حدث فركب مركبة وذهب الى نظارة الحربية فوجد انهُ لا يستطيع الوصول الى بابها من كثرة الجمع المحتشد امامها واذا هو بناس يقولون هذا فائق بك اقتلوهُ ولما رأى انهم تحفزوا لقتلهِ ناداهم قائلاً اذا اردتم قتلي فذلك سهل عليكم لاني اعزل وانتم مسلحون ولكن كيف يسوغ لكم ان تقتلوني باسم الشريعة وانا رجل مسلم مثلكم والشريعة تنهى المسلم عن قتل اخيهِ المسلم ظلمًا

فاثَّر كلامهُ في البعض منهم وجعلوا يتآمرون فيما بينهم ولكن قال البعض الآخر لا تصدقوهُ بل اقتلوهُ اما هو فمال الى الذين رأى ان كلامهُ اثر فيهم فتحوا لهُ طريقًا الى شارع جانبي وظن انهُ نجا من شرهم ولكن تبعهُ رجل كردي واغمد خنجرهُ في ظهرهِ فوقع مغمًى عليهِ وحُمل الى مركز البوليس ولما افاق وجد نفسهُ بين يدي طبيب ثم نقل الى المستشفى

وذهب المخبر مكلاً وامستر مور الى نظارة الحربية نحو الساعة الخامسة مساء فرأوا ابوابها مقفلة وقد نزع بعض درابزين الحديد الذي حولها ووقف هناك بعض الجنود ولا سلاح معهم وكانت الفتنة قد خمدت باستعفاء الوزارة فان جواد بك باشر كاتب المابين أتى مجلس المبعوثان الساعة الرابعة ونصف وقرأ فيهِ الارادة السلطانية بقبول استعفاء الوزارة والعفو العام عما فعلهُ الجنود ووجوب الاخذ باحكام الشريعة في المستقبل اكثر مما كان يؤخذ بها في الماضي

وشدَّد الكاتب النكير على الوزارة لانها تساهلت مع المتمردين ولم تقمع تمردهم بالقوة حالاً وجعل تساهلها سببين الاول كون الفتنة عسكرية والعساكر كانوا معدودين موجدي الدستور وحماتهُ والثاني انهم جعلوا لفتنتهم صفة دينية فصارت مقاومتهم بمثابة مقاومة الدين ولو جعلوا ثورتهم سببًا آخر كقلة الطعام او صعوبة التمرين العسكري او صرامة الضباط لاخمدت ثورتهم في الحال

ثم قابل بين بدء الثورة الفرنسوية وبدء الثورة العثمانية فقال لما أُخذ البستيل في بدء الثورة الفرنسوية كان في شان دو مارس عشرة آلاف جندي وفي فرسايل ثلاثون الفًا ولكن الملك لويس السادس عشر لم يعتمد عليهم كلاً ينضموا الى الثائرين وحدث مثل ذلك في

الاستانة في ١٣ ابريل فانهُ كان عند الجمعية جنود كثيرون يمكنها ان تعتمد عليهم ولكنها خافت ان تستعملهم فينضموا الى الثائرين غير ان المشابهة تنتهي هنا . ولما بلغني ان السلطان اجاب الجنود الى كل مطالبهم انتظرت ان تخمد الثورة حالاً لكنني كنت مخطئًا لان الخطب تفاقم تلك الليلة وفي الايام التالية وكان يمكن ان تستمر الفتنة اشهراً لولا مجيء الجنود المكدونية . فقد بقي الجنود المتمردون في ساحة ايا صوفيا الى الساعة الحادية عشرة ليلاً ثم اخذوا بالانصراف وهم يطلقون بنادقهم وموسيقاهم تعزف بلحن الدستور واقتدى بهم سائر جنود الاستانة في اطلاق البنادق وظلوا كذلك الى الساعة الثانية بعد نصف الليل ثم عادوا الى اطلاقها عند الفجر واستمروا على ذلك النهار كلهُ وكانت نتيجة اطلاق البنادق ان قتل برصاصها نحو اثني عشر نفساً وجرح كثيرون و بلغ ما أُطلق من الطرطوش نحو مليون ونصف . ولا تسل عن الرعب الذي عمَّ بالسكان ولا اظن ان احداً غمض لهُ جفن تلك الليلة من كل سكان الاستانة

ولما اصبح الصباح جعل الجنود يطوفون في شوارع الاستانة فرقاً فرقاً بوجوه شاحبة تتصبب عرقاً وهم يسيرون في وسط الشارع ولا يتعرَّضون لاحد بسوء ولكنهم يطلقون بنادقهم في الهواء من وقت الى آخر . كانت المدينة في يدهم ولكنهم لم يعتدوا على احد ونسب الكاتب اعتدالهم هذا الى عدم شربهم المسكرات وقد الزموا الجنود الموكلين بحراسة البنك العثماني ان ينضموا اليهم فانضموا ولكنهم لم يسلبوا غرشاً من ذلك البنك مع انهُ كان في طاقتهم ان يأخذوا منهُ ملايين الجنيهات

وكل الذين قتلوا في اليوم الاول من حزب تركيا الفتاة لا يزيدون على اثني عشر رجلاً ومنهم الامير محمد ارسلان وناظر الحقانية . والذين قتلوا في اليوم الثاني بوقوع الرصاص عليهم قلال جداً مع ان الرصاص كان وابلاً مدراراً . ولما خاف المتمردون من ان تقوم الغوغاء للسلب والنهب ارسلوا الحراس منهم الى اسطنبول وغلطة و بيرا فحفظوا الامن فيها ومنعوا كل اعتداء . و بلغهم ان اثنين من الحمالين اخذا يثقبان سور السجن المركزي لاطلاق المسجونين فقبضوا عليهما وسلموهما للبوليس . واضرم المسجونون النار في السجن لكي يحرقوهُ و ينجوا منهُ فهجم عليهم المتمردون ومنعوهم عن ذلك بالقوة بعد ان اطلقوا الرصاص عليهم

والخلاصة ان الجنود المتمردين قاموا مقام الحكومة وحفظوا الامن ولم يعتدوا على احد ولم يؤذوا الاَّ الذين حسبوهم من حزب تركيا الفتاة . ولما جعل ادهم باشا ناظراً للحربية طلب من الجنود الانصراف الى ثكناتهم وقال لهم انهُ لا يحدث الاَّ ما يرضيهم فاجابوهُ قائلين ان

ليس لهم غرض الاَّ حفظ الامن والمحافظة على الدستور والشريعة . وجاء عسكري وقابلهُ بصفتهِ ناظر الحربية وطلب منهُ باسم رفاقهِ ان يبذل جهدهُ في خير الجنود والبلاد فوعدهُ خيراً حاسباً انهُ جُعل ناظراً للحربية مرضاة للجنود وختم كلامهُ بقولهِ «والله فكر يكرّ اجرا اولنه جق» اي والله سيجاب طلبكم . ولو كان الناظر من الاوربيين لأمر ان يقبض عليهِ ويحاكم في مجلس عسكري لوقاحتهِ

وفصَّل المستر مكلاً كيفية اعتداء الجنود على ضباطهم وقتلهم واختفاء الباقين منهم مثال ذلك ان محمود مختار باشا تزيا بزي بحري يوناني وتزيَّا البرنس عزيز بزي وقّاد ودهن وجههُ بغبار الفحم واقام في مخزن . ولبس رشيد بك ابن فؤاد باشا لبس سيدة اوربية وهرب كثيرون من الامراء والوزراء والتجأوا الى السفارات الاوربية . وقد وجدت قائمة فيها اسماء ٢٢٠ اريد قتلهم كلهم ولكن محمود مختار باشا قال انهُ لم يقتل حينئذٍ سوى ٣٦ من الضباط وجرح اكثر من خمسين . وبقي جنديان واقفين امام باب احد الضباط في يلدز بضعة ايام وقد سألهم احد الاوربيين عن غرضهم وعن ذنب ذلك الضابط فقالوا لا نعلم ما هو ذنبهُ ولكننا مأمورون بقتلهِ حالما يخرج من بيتهِ . ويظهر من ذلك ان التهمة كانت معقودة على القتل بكل زعماء جمعية الاتحاد والترقي

وكان في الاستانة سيدة مسلمة تتبع لها زوجها بمكاتبة جريدة طنين وبمقابلة الزوار مكشوفة الوجه فأُبلغت انها في خطر مبين فهربت الى اسكدار هي وولداها واعطاها الدراويش الموتورة ثيابًا من ثيابهم لها ولولديها فهربوا بها ونجوا

ولم يخرّب المتمردون من المباني الاَّ دار جمعية الاتحاد والترقي وادارة طنين وشوراي امة ونادي السيدات المسلمات ولكن قتل على اثر ذلك اكثر من عشرين الفًا من الارمن سيفًا الاناضول اي في طرسوس ومرسين وانطاكية والاسكندرونة وحلب

وذكر الكاتب بعض الادلة على ان الولاة كانوا عارفين بما سيحدث في تلك الولايات فتقاضوا عنهُ وان المذابح منعت في حلب وبيروت وغيرهما من المدن بسعي رجال جمعية الاتحاد والترقي . وحضر السلاملك يوم الجمعة بعد ظهور الفتنة ورأى فيهِ كثيرين من العلماء والدراويش والسقطاء على غير المعتاد وكثيرين من اعضاء الجمعية المحمدية ولم يحضرهُ الاَّ القليل من ضباط الجيش ووقف واحد من العلماء بعد مرور السلطان ونادى بالدعاء لهُ فكرَّر الجميع دعاءهُ

ومن رأي المؤلف ان الفتنة حدثت بتدبير عبد الحميد او برضاهُ وانهُ شارك فيها بالرأي والمال ولولا مبادرة شوكت باشا بالجنود من سلانيك لقضي على الدستور كما سيجيء